*ملامح النقد في عصر الجاهلية وصدر الإسلام*

*بحث دراسات بلاغيه*

إعداد أ/ *محمد سعد حسن*

*قسم اللغة العربية*

*كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم – ماليزيا*

***mohamad.saad@mediu.ws***

**خلاصة ـــ هذا البحث يبحث في ملامح النقد في عصر الجاهلية وصدر الإسلام**

**الكلمات المفتاحية : البلاغة والبيان ، القرآن الكريم ، الأدلة**

1. **المقدمة**

**الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، سوف نتحدث في هذا المقال عن ملامح النقد في عصر الجاهلية وصدر الإسلام**

1. **عنوان المقال**

**إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونسترضيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وبعد:**

**فنبدأ بما كان في عصر الجاهلية، وصدر الإسلام، ومن المعلوم بداهة أن العرب في الجاهلية، بلغوا منزلة رفيعة من البلاغة والبيان، وقد صوّر القرآن الكريم ذلك في مثل قوله تعالى: {ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ} [الرحمن:1- 4]، وقوله {ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ} [المنافقون: 4]، وقوله {ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ} [البقرة: 204]، كما صور قوتهم في الحجاج والجدل، في مثل قوله تعالى: {{ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ} [الأحزاب: 19]، وقوله: {ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ} [الزخرف: 58].**

**ومن أكبر الأدلة على ما حذقوه من حسن البيان، أن كانت معجزة الرسول الكريم  وحجته القاطعة لهم، دعوة أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن في بلاغته الباهرة، وهي دعوة تدل في وضوح على ما أتوه من الفصاحة والقدرة على نظم الكلام.**

**كما تدل على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني، وتبين ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير، ويُروى أن الوليد بن المغيرة -أحد خصوم الرسول الألد- استمع إليه، وهو يتلو بعض آي القرآن، فقال: "والله لقد سمعت من محمد كلامًا، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدِق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه".**

**وفي كلام الوليد، ما يظهرنا على أنهم كانوا يُعربون عن إعجابهم ببلاغة القول في صور بيانية، وهذه إحدى سمات النقد والحكم على جيد الكلام.**

**ويعرض علينا الجاحظ، في بعض فصوله لكتابه: (البيان والتبيين)، كيف كانوا يصفون كلامه في شعرهم وخطاباتهم ببرود العصب الموشاة، وبالحلل، والديباج، والوشي، وأشباه ذلك، ورد هذا في الجزء الأول من: (البيان والتبيين)، وكثيرًا ما وصفوا خطباءهم بأنهم مصاقعٌ لُسُن، كما وصفوهم باللوذعية، والرمي بالكلام العضب القاطع، ومن أمثالهم جرح اللسان، كجرح اليد، ويروى أن الرسول  استمع إلى بعض خطبائهم، فقال: ((إن من البيان لسحرًا)).**

**ونفس أدبهم الذي خلفوه، يحمل في تضاعيفه ما يصور فصاحة منطقهم، كيف كانوا يتأنقون في الكلام حتى يبلغوا منه كل ما كانوا يريدون، من استمالة القلوب والأسماع، وأحس بذلك الجاحظ من قديم؛ فقال في كتابه: (البيان والتبيين): "لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد، وفي صنعة طوال الخطب، وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ومهمات الأمور، ميَّثوه -يعني: ذللوا الكلام- في صدورهم، وقيدوه على أنفسهم، فإذا قوَّمه الثقاف وأدخل الكير، وقام على الخلاص أبرزوه محكمًا منقحًا، ومصفّى من الأدناس مهذبًا"، انتهى كلامه.**

**فبلغاؤهم من الفصحاء ومن الشعراء إذًا -وبما ذكرنا عن بعضهم- قد يكونوا يقبلون كل ما يرد على خواطرهم، بل ما يزالون ينقِّحون ويجوِّدون حتى يظفروا بأعمال جيدة، وهي في مجملها أعمال كانوا يُدينون فيها الفكرة، ويعاودون النظر متكلفين جهودًا شاقة في التماس المعنى المصيب تارة، والتماس المعنى المتخيل تارة ثانية، يقودهم في كل ذلك بصر محكم يميزون به المعاني، والألفاظ بعضها من بعض؛ بحيث يصونون كلامهم عمَّا قد يفسده أو يهجنه.**

**وقد وقف الجاحظ في بيانه مرارًا، ينوه بما كانوا يرسلونه في خطابهم وكلامهم من أسجاع محكمة الرصف، وكرر القول في أن من شعرائهم من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولًا كاملًا، وزمنًا طويلًا يُردد فيها نظره، ويجيد فيها عقله، ويقلب فيها رأيه؛ اتهامًا لعقله وتتبعًا على نفسه، ويجعل عقله ذِمامًا على رأيه، ورأيه عيارًا على شِعره، وكانوا يسمون تلك القصائد بالحوليات، والمقلدات، والمنقحات، والمحكمات؛ ليصير قائلها فحلًا خنزيزًا، وشاعرًا مفلقًا، انتهى من كلام الجاحظ.**

**ولقد لقبوا شعراءهم ألقابًا تدل على مدى إحسانهم في رأيهم، مثل: المهلهل، والمرقش، والمثقب، والمنخل، والمتنخل، والأفوه، والنابغة، وكأنه لم كان هناك ذوق عام دفع الشعراء ومن وراءهم من الخطباء، إلى تحبير كلامهم، وتجويده، ومما لا شك فيه أن أسواقهم الكبيرة، هي التي عملت على نشأة هذا الذوق، وخاصة سوق عكاظ بجوار مكة؛ إذ كان الخطباء والشعراء يتبارون فيها، وكل يريد أن يحوز قصب السبق لدى سامعيه دون أقرانه، فيظهر أنه كان لقريش في ذلك الحكم الذي لا يُرد.**

**وفي كتاب: (الأغاني)، لأبي الفرج الأصفهاني: "أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولًا، وما ردّوه منها كان مردودًا، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي؛ فأنشدهم قصيدته:**

|  |
| --- |
| **هل ما علمت وما استودعت مكتوم** |

**فقالوا: هذا سمط الدهر، ثم عاد إليهم العام القابل، فأنشدهم قصديته:**

|  |
| --- |
| **طحى بك قلب في الحسان طروب** |

**فقالوا: "هاتان سمطا الدهر".**

**ويبدو أن من الشعراء النابهين، من كان يقوم في هذه السوق مقام القاضي الذي لا يرد حكمه، ففي أخبار النابغة الذبياني، أن الشعراء الناشئين كانوا يحتكمون فيها إليه، فمن نوَّه به طارت شهرته في الآفاق، وكان في أثناء ذلك يبدي بعض الملاحظات على معاني الشعراء وأساليبهم، ويقال: أنه فضل الأعشى على حسان بن ثابت، وفضل الخنساء على بنات جنسها، وثار حسان عليه، وقال له: أنا والله أشعر منك ومنها، فقال له النابغة: حيث تقول ماذا، قال: حيث أقول:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى** | **\*** | **وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دمَا** |
| **ولدْنا بني العَنْقاءِ وابنَيْ مُحَرِّقٍ** | **\*** | **فأَكْرِمْ بنا خالاً وأَكْرِمْ بنا ابنَمَا فقال له النابغة: إنك لشاعر، لولا أنك قللت عدد جفانك، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك، وفي رواية أخرى، فقال له: إنك قلت الجفنات، فقللت العدد، ولو قلت الجفان؛ لكان أكثر، وقلت يلمعن في الضحى، ولو قلت يبرقن بالدجى؛ لكان أبلغ في المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثر طُروقًا، وقلت: يقطرن من نجدةٍ دمًا، فدللت على قلة القتل، ولو قلت: يجرين لكان أكثر؛ لانصباب الدم، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسرًا منقطعًا.** |

**وفي تعليقات النابغة وملاحظاته، ما يدل على أن شعراء الجاهلية كان يراجع بعضهم بعضًا، وأنهم كانوا يبدون في ثنايا مراجعاتهم بعض الآراء في المعاني والألفاظ.**

**ويروى عن طرفة بن العبد أنه لاحظ على المتلمس، أو المثيب بن علس أنه وصف في بعض شعره البعير بوصف خاص بالناقة، فقال ساخرًا به: استنوق الجمل...الأصفهاني، في كتابه: (الأغاني)، في الجزء الواحد والعشرين، صفحة مائة واثنتين وثلاثين.**

**وينبغي ولو يمنا وجهنا لمدرسة زهير بن أبي سلمى؛ لوجب القول بأنه ينبغي أن نقف قليلًا عند هذه المدرسة، وهي مدرسة كانت تجمع إلى الشعر روايته، وهي تبدأ بأوس بن حجر التميمي، الذي تلقن عنه الشعر زهير المزني، ولقنه بدوره لابنه كعب والحطيئة، ولقنه الحطيئة، هدبة بن الخشرم العزري، ولقنه هدبة، جميل بن معمر، وعنه تلقنه كُثير، وهي مدرسة لم تكن تمضي في نظم الشعر عفو الخاطر، بل كانت تتأنَّى فيما تنظم منه، وتنظر فيه، وتعيد النظر مهذبة منقحة، وقد وصف الأصمعي قطبيها، زهيرًا والحطيئة، فقال: "زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر".**

**وكذلك كل من جوَّد في جميع شعره ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يُخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة، وهي جودة كانت تقوم على التصفية والترويق، فالشاعر من آثار زهير والحطيئة، حين ينظم قصيدة يظل يتأمل في أعطافها، يحذف أو يزيد بيتًا، ويصلح عبارة هنا أو هناك، ويصفي الأبيات من شوائبها، ويخلص القوافي من أدرانها تخليصًا تامًّا.**

**ويقول الأصفهاني في كتابه: (الأغاني): "كان الحطيئة، راوية زهير وآل زهير"، ويروى أنه أتى كعبًا، فقال له: "قد علمت روايتي لكم، وانقطاعي إليكم، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعرًا تذكر فيه نفسك، وتضعني فيه موضعًا بعدك، فإن الناس لأشعاركم أروى، وإليها أسرع، فقال كعب:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **فمن للقوافي شانها من يحوكها** | **\*** | **إذا ما سوى كعب وفوَّز جرول** |

**سوى وفوَّز، يعني: هلك، والمقصود من جرول، الحطيئة.**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **كفيتُكَ لا تلْقَى مِن الناسِ واحدا** | **\*** | **تنخَّلَ مِنها مِثْل ما يُتنخَّلُ** |
| **يُثقِّفُها حتى تَلِينَ مُتُونُها** | **\*** | **فيَقْصُرُ عنها كلُّ ما يُتمثَّلُ** |

**نتنخل وتنخل، يعني: نختار، يثقفها، يعني: يقومها، وهي القصائد والقوافي:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **يُثقِّفُها حتى تَلِينَ مُتُونُها** | **\*** | **فيَقْصُرُ عنها كلُّ ما يُتمثَّلُ** |

**وهو يزعم أنه هو والحطيئة، يتفوقان على كل من عداهما في تقويم أشعارهما، وأخذها بكل ما يمكن من تنقيح وتعديل، حتى تغدو أساليبها مستوية متناسقة أشد ما يكون الاستواء والتناسق، وهما جميعًا من مدرسة زهير، تلك المدرسة التي كان أصحابها -كما أسلفنا- رواة، والتي كان يتخرج بعضهم فيها على بعض، التلميذ يلزم أستاذًا له، يأخذه برواية شعره، ومعرفة طريقته، وما يزال به حتى تتفتح مواهبه، ويسيل الشعر على لسانه، وحينئذٍ يورد عليه بعض ملاحظاته على ما ينظم، وقد يصلح له بعض نظمه.**

**وإنما أطلنا في تصفير ما قدمناه عن العصر الجاهلي؛ لندل على أن الشعراء حينئذٍ كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور، وكانوا يسوقون أحيانًا ملاحظات لا ريب في أنها أصل الملاحظات البيانية في بلاغتنا العربية، ومن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات، والاستعارات، وتتناثر فيها من حين إلى حين ألوان من المقابلات، والجناسات، مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام، والتفنن في معاريضه البليغة.**

**وأخذت تنمو هذه العناية بعد ظهور الإٍسلام، بفضل ما نهج القرآن ورسوله الكريم، من طرق الفصاحة والبلاغة.**

**أما القرآن، فكانت آياته تُتلى في آناء الليل وأطراف النهار، وأما الرسول  فكان حديثه يذيع على كل لسان، وكانت خطبه -بأبي هو وأمي وروحي ونفسي  ملء الصدور والقلوب، وفيه يقول الجاحظ، في: (البيان والتبيين): "إنه لم ينطق إلَّا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلَّا بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوى من كلامه ".**

**وفي أخبار الرسول – ما يدل على أنه كان يُعنى أشد العناية بتخير لفظه، فقد أُثر عنه  أنه كان يقول: ((لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي))، كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه، وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي خطباء مفوَّهين، وكانوا يستضيئون في خطابتهم، بخطابة الرسول الكريم  وآي الذكر الحكيم، وربما كان مما يدل على شيوع دقة الحس حينئذٍ، ما يُروى عن أبي بكر من أنه عرض لرجل معه ثوب، فقال له: أتبيع الثوب؟، فأجابه: لا، عافاك الله، وتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ، إذ قد يظن أن النفي مسلط على الدعاء "لا عافاك الله"، فقال له: "لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا، وعافاك الله".**

**ويضرب الرواة مثلًا لبلاغة عمر، أنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أيِّ شدقيه شاء، وكان عليٌّ لا يُبارَى فصاحة وبلاغة، وهذا كله بالطبع يُحسب في ميزان النقد الأدبي، والحكم على جيد الكلام، وتمييز هذا الجيد من الرديء.**

**المراجع والمصادر**

1. **القزويني ، زكريا بن محمد القزويني تحقيق: محمد السعدي فرهود ، (الإيضاح في علوم البلاغة) ، طبعة رقم1، سنة النشر: 2001 م**
2. **الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، (دلائل الاعجاز) ، ط5، مكتبة الخانجي، 2004م.**
3. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (دلالات التراكيب دراسة بلاغية) ، القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1987م**
4. **المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها) ، القاهرة، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي، ط1، 1950م**
5. **فيود ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، (علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان) ، القاهرة، مؤسسة المختار ، دار المعالم الثقافية، الإحساء ، ط 2، 1998 م**
6. **الخوارزمي ، الشيخ يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الملقب بسراج الدين السكاكي، (مفتاح العلوم) ، لبنان، مكتبة المقهى، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ، 1987م**
7. **الشاطئ، عائشة بنت الشاطئ، (التفسير البياني) ، مكتبة المجلس، الطبعة الأولى، 1962م**
8. **فيود، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، (علم البديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) ،القاهرة، مؤسسة المختار، 2004**
9. **الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، (البغية على الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة) ،مكتبة الآداب، 1999م**
10. **شاهين، كامل السيد شاهين، (اللباب في العروض و القافية) ،القاهرة، الهيئة العامة لشئون الأميرية، 1978م**
11. **القيرواني، ابن رشيق القيرواني، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) ،الناشر: دار الكتب العلمية، 2001م**
12. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (التصوير البياني) ،القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م**